

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْفُضَّلَاءُ،

أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْكِرَامَ،

لَا يَعْنِي التَّوَكُّلُ مُجَرَّدُ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ. فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ حِينَ يَتَوَكَّلُ لَا يَعْتَمِدُ عَلَى مَالِهِ، أَوْ نَفْسِهِ، أَوْ عِلْمِهِ أَوْ اسْتِعْدَادِهِ بَلْ يَرْكُنُ إِلَى اللَّهِ. كَثِيرًا مَا يَنْسِبُ الْإِنْسَانُ نَجَاحَهُ إِلَى نَفْسِهِ أَوْ اسْتِعْدَادِهِ. وَذَلِكَ قَدْ يُوَدِّي إِلَى تَعْظِيمِ الْأَسْبَابِ تَعْظِيمَ الْأَصْنَامِ.

وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ عَدَمَ التَّوَكُّلِ قَدْ يُوَدِّي الْإِنْسَانَ إِلَى الْإِحْتِرَاصِ، وَالْخَوْفِ، وَالشَّائِؤُمِ، وَالضُّيْقِ، وَالضُّغْطِ، وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ حِينَمَا يَهْدِي التَّوَكُّلُ إِلَى الْعِزَّةِ، وَالرُّشْدِ، وَالْأَصَالَةِ، وَالصَّبْرِ، وَالتَّحَمُّلِ وَالْأَمَانِ. فَالَّذِي يَحْفَظُنَا مِنَ الشَّائِؤُمِ وَالْخَوْفِ لِلْمُسْتَقْبَلِ بَعْدَ الْمَصَائِبِ هُوَ التَّوَكُّلُ. فَإِنَّ التَّوَكُّلَ أَمْرٌ إِيْمَانِيٌّ يُوَثِّرُ أَعْمَالَ النَّاسِ وَأَمَالَهُمْ.

إِخْوَتِي الْكِرَامَ،

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَحَقَّقَ فِيهِ التَّوَكُّلُ فَإِنَّهُ يُصْلِحُ نَظَرَتَهُ لِلْحَيَاةِ وَيَفْهَمُهَا عَلَى النَّمْطِ الصَّحِيحِ. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ بَصِيرًا بِحَقِيقَةِ الْحَيَاةِ فَهُوَ أَوْلى بِأَنْ يَقَعَ فِي الْهَمِّ وَالْغَمِّ. وَهَكَذَا تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ إِلَى عَذَابٍ. خِلَافًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَفَوَّضَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ إِلَيْهِ. فَإِنَّهُ يَحْصُلُ بِذَلِكَ عَلَى السَّكِينَةِ وَالنَّشَاطِ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَلَوْ بَدَلَ كُلِّ جُهِدِهِ قَدْ لَا يَصِلُ إِلَى مَقَاصِدِهِ. قَدْ لَا يَنْجَحُ مَعَ أَنَّهُ أَخَذَ بِكُلِّ الْأَسْبَابِ. فَالتَّوَكُّلُ يُسَكِّنُ الْإِنْسَانَ وَنَفْسِيَّتَهُ.

فَلَنُخْتِمَ خُطْبَتَنَا بِالِدُّعَاءِ الَّذِي قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجَ مِنَ الْمَنْزِلِ وَوَصَّى بِهِ أُمَّتَهُ، قَالَ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزَلَ أَوْ نُزِلَ، أَوْ نُظْلَمَ أَوْ نُظْلَمَ، أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا»⁵

يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾¹ وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾²

إِنَّ كَلِمَةَ التَّوَكُّلِ تَشْمَلُ مَعَانِيًا عَدِيدَةً. مِنْهَا تَعْيِينُ الْوَكِيلِ، وَالثَّقَّةُ وَالْإِعْتِمَادُ وَالرُّكُونُ وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ. وَيُقْصَدُ بِهَا اصْطِلَاحًا الْاسْتِعْدَادُ وَبَدَلُ كُلِّ جُهِدٍ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ مَقْرُونًا بِتَفْوِيضِ النَّتَاجِ إِلَى تَقْدِيرِ رَبِّ الْعِزَّةِ. وَيَتَفَاوَتْ تَوَكُّلُ الْإِنْسَانِ عَلَى حَسَبِ قُوَّةِ إِيْمَانِهِ. فَمَنْ اسْتَكْمَلَ إِيْمَانَهُ فَقَدْ كَمَلَ تَوَكُّلُهُ.

تَخْتَلِفُ عُقُولُ النَّاسِ فِي إِدْرَاكِ حَقِيقَةِ التَّوَكُّلِ، وَرُبَّمَا يُخْطَأُ فِي فَهْمِهَا. فَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ تَرْكِ الْأَسْبَابِ لَا يُسَمَّى تَوَكُّلًا بَلْ هُوَ كَسَلٌ! وَالْفَرْقُ بَيْنَ التَّوَكُّلِ وَالْكَسَلِ دَقِيقٌ. فَإِنَّهُ يَنْبَغِي التَّنْبِيهُ عَلَى ذَلِكَ. فَمَنْ تَرَكَ الْأَسْبَابَ فَقَدْ عَطَلَ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ. وَمَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ.

فَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَاقَتِهِ فَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعْقِلُهَا وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا وَأَتَوَكَّلُ؟" قَالَ ﷺ: «إِعْقِلُهَا وَتَوَكَّلْ!»³

وَلَقِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ. فَقَالَ: "مَنْ أَنْتُمْ؟" قَالُوا: "نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ" قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ مُتَكِلُونَ." [يَعْنِي أَنَّهُمْ يَتَكِلُونَ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِكِسَالِهِمْ] إِنَّمَا الْمُتَوَكَّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ⁴. فَبَيْنَ بِذَلِكَ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلتَّوَكُّلِ.

1 سورة الطلاق: ٣

2 سورة إبراهيم: ١١

3 جامع الترمذي، كتاب صفة قيامة، ٦٠

4 أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ» (١٩٨٧)، ص ٤٥، رقم الأثر

(١٠) ورواه موفَّقون. وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٠٣)، ٤٢٩٢، ٢

تعليقاً، التعليق في الوسط لمؤلف الخطبة.

5 جامع الترمذي، كتاب الدعوات، ٣٥